

المقصد

الجزء الثاني عشر من المجلد الثاني

في الحجة سنة ١٣٢٥ الموافق يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٨

مآلتا العلمية والادبية

حري بنا والربع الاول من القرن الرابع عشر بشي بانسلاخ هذا الشهر ان نذكر بعض ما تم للبلاد العربية في خلاله من اسباب النهوض وتحسين الملكات والارتقاء العلمي والادبي فنثبت من ذلك ما نعرفه عن مصر والشام بالبيان وما يلفتنا عن البلاد القاصية من ثقات من رحلوا اليها او اطلعنا عليه قلة من اهليها نقول :

كان حظ مصر من هذا الارتقاء عظيماً اذا قيس بالخطوات التي خطتها الاقطار الاخرى ومصر لا تزال منذ سقوط الدول الاولى محط رحال العالمين والمتعلمين ومقصد اهل الاسلام من اهل افريقية واوروبا وآسيا وجزائر المحيط . فقد زاد فيها عدد المتعلمين وبعد ان كانوا واحداً او اثنين في المئة اصبحوا الآن نحو عشرة وزاد المتأدبون والقراء ايضاً فبعد ان كانت الجرائد لا يتناولها اكثر من النقي قاريء ومعظمهم لا يكادون يفقهون ما يقرأون زاد عددهم زيادة كبرى حتى جاوزوا فيما احسب ثلاثين الفا وكثير منهم يعقلون ما يلقي عليهم كجاءد تحسين الصحافة العربية واخذت تجري على مثال الصحافة الغربية وصار لها صوت وتأثير في الامة . وعلى تلك النسبة نما فريق الكتاب والادباء والمربين والمصنفين بعد ان كان الكتاب في مصر اواخر القرن الثالث عشر يعدون على الاصابع ومعظمهم ضعاف يكثر في كلامهم اللحن والركاكة كما نقل الافكار السديدة . ولولم يكن المصريون منصرفين الى تولي اعمال القضاء والادارة والطب والهندسة في الحكومة لرأيت انكاتبين والمفكرين منهم اكثر سواداً واعظم نفعا ولكن الآمال معقودة بان يزداد عددهم ويكثر الانتفاع بثمرات عقولهم وتجاربهم في الربع الثاني من هذا القرن اذ اصبح بعضهم يشعرون بان الاعتماد سبي تعليم

ابنائهم على الحكومة وحدها ليس من السداد في شيء ومضى اخذت الوظائف كفايتها من العمال يقدو المتعلمون وقد تسدت في وجوههم الابواب في الحكومة فلا يعود امامهم غير الصناعات الحرة ومنها القيام على التأليف والكتابة وهي من المعاش التي يزهدون فيها الآن ساعد مصر على النهوض انتشار الحربة الشخصية وكثرة احتكاك الاهلين بالاجانب فنشأ من ذلك نشأة ان لم يكن في الغاية بتعليمه فهو اهل للعمل لو ضرب عليه . وعرف اكثرهم منزلتهم ومنزلة قومهم من القصور فهموا ان يعملوا وحاولوا ان ينفجوا واصبح الناس يبحثون في الشؤون الدائمة اكثر من ذي قبل وان كان بحث عامة الناس في الشؤون السياسية عقياً في الاغلب . والجرائد هي السبب في غرس هذا الميل في نفوس القوم فهي المدرسة اليومية بعد المدارس الاميرية والاجنبية والكتاتيب الاهلية ولطالما اكثرت من ترديد عبارات التمجيس والنقد والتنديد والنعي والمويل ففعلت اقوالها في الازهان بقدر تأثير كتابها حتى خاف العقلاء ان تكون الآراء السياسية مشغلة للقوم عن النظر في شؤون التجارة والزراعة والصناعة . وقد اخذت بعض الجرائد الخطيرة تحاول سد هذه الثمة فانشأت تكثر من نشر الموضوعات الاجتماعية والتاريخية والادبية على نحو ما تفعل الصحف في بلاد الغرب . وكما كان للجرائد العربية تأثير في الافكار فقد فعلت فعلها في الالسن والاقلام باستعمالها الكلام الفصيح كل يوم بحيث علق من تراكيها ومصطلحاتها جملة صالحة صار العامة يدجونها في تضاعيف كلامهم وخطابهم وترقت بواسطتها لغة الدواوين وكانت من قبل في احط دركات الركافة .

نشأ لمصر مهندسون واطباء وقضاة متعلمون كاحسن ابناء صنفهم في بلاد الغرب لولا ان رجالنا يصابون في الاكثر بشيء من الفتور ووقوف عقيب سن الدراسة قد يعوقهم عن الجري في العمل بعد ان يستوفوا النظريات ولولا ذلك لرأينا من آثارهم في نثر ابناء بلادهم من سقطتهم اكثر مما رأينا . وابناء مصر لا يزالون مقصرين فيما يربى النفوس على حب العمل الحر النافع ولم يقبلوا حتى الآن على اثنان العلوم الزراعية والصناعية وما ينبغي لها اقبالهم على الحقوق مع شدة حاجة القطر الى الزراعة قبل كل علم .

ويسرنا ان نرى كثيرين من المصريين يقصدون بلاد الغرب للتعليم في مدارسها وبعضهم من ابناء الاعيان . وكيفما كانت الغاية من تعليمهم فهم مفخر من مفاخر بلادهم ولا بد ان يكون السابقون مقصرين فيما يجب عليهم اتباعه والاضطلاع به بداءة بدء ولكن الجيل المقبل سيكون انشط في عمله واسرع الى تلقف ما يلزمنا من مدنية اوروبا وما يضر بنا منها وهو كالصدأ عليها وعقلاء اهلها يتادون بالغلي عنه في كل شارقة وبارقة .

قلت ان الجرائد اثرت في نهضة المصريين ولم اقل المجلات لان هذه متسورة على طبقة خاصة من القراء وبعضها منتشر خارج القطر اكثر من انتشاره داخله لان العليات والاجتماعيات والدينيات والادبيات ليس لها في نفوس العامة تلك المتزعة التي يبدوها القاريون فيما يقرأه للنفكة من الاخبار والمناقشات السياسية ويحده منه نيد النظر وبكبريه الاماني . على ان لبعض المجلات الكبرى التي ظهرت في مصر على قلة انصارها فضلاً كبيراً في التعليم والتربية .

ومن الترقى في الافكار ان بعض اهل الجود ممن كانوا لا يقولون بتلاوة الصحف والكتب الحديثة اخذوا يقرؤنها اضطراراً وسمحوا او تسامحوا بمطالعتها فكان من اثرها ان عرف بعض طلبة العلوم الدينية تقصيرهم في الاخذ من علوم الدنيا بغير ما وافروا به على فهم اسرار الشريعة ونشأ من هذه الحركة ان دخل شيء من الاصلاح طفيف على طريقة التعليم في الازهر وادخل في قاعة دروسه من علوم الرياضة وتقوم البلدان والتاريخ وفن الادب ما كانت تلك المدرسة الكبرى محرومة منه زمناً طويلاً . وانه على عقم طريقته الى الآن يرجي ان ينشأ منها ناشئة يفضلون بما تعلمه اخوانهم الذين سبقهم خصوصاً وقد توفرت العناية بمدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم وهما من ارفع المدارس لانها دروس من يخرجون في الازهر وانشأت مدرسة ابي العباس المرسى في الاسكندرية تخرج من طلبة الدينيات من لم يشارك في شيء من علوم الدنيا . فكان مشايخ العلوم الدينية وكانوا لا يسفون للنازل الى تعلم ما فاتهم من اسباب العلم بزمانهم رأوا الآن وقد قامت المدارس المنظمة على الطريقة الاوربية بعض التنظيم تنازعهم فضل تربية الامة واعداد رجالها ان لا مندوحة لهم عن دعوة صغار الطلبة ولويلسان الحال ان ينظروا نظراً اجمالياً فيما لا غنية عنه من علوم العصر .

فمسي ان تم للنهضة من هذه الامة امنيته من الاهابة بالتعليم الى الاخذ من علوم الدنيا والدين على حد سواء ثم يتمحض منهم من يريد ان يتمحض لفرع من الفروع التي يجد فيها له الغناء . ومن قرأ تاريخ اوروبا في القرن السادس عشر يجد كتار يخنا في هذا الربع الاول من القرن : عراك بين القديم والحديث وقلة انقان لها كليهما والنفوس آخذة بالشعور تلوب على ما يوليها نهوضاً . وادراك الفرد نقصه وسعيه الى كماله ولو اخطأ الطريق باديء بديء فال خير وبشرى سعادة . والقول اول مراتب العمل والشك اول درجات اليقين . ولا بقاء هذه الامة الا اذا اقبلت على النافع من قديمها ولم تستهين به وازافت اليه من الحديث ما لا عيب لها به وفيه قوام اجتماعها .

ان اختلاط متبر الغرباء والافرنج منهم خاصة من كثر اقبالهم عنينا اكثر من كل

بلد بتكلم اهلهم بالعربية اللغوية الا الجزائر وتونس وتعلم جانب من ناشئتها في مدارسهم واثقائهم للغاتهم وذهب اهل السعة منهم كل صيف للاصطياف في اوروبا وارسلهم بعض اولادهم بعثرون من معين العلم في مدارسها وشلا - كل هذه الاسباب ادخلت مصر في طور البلاد الافريقية ولا سيما حواضرها وامهات مدنها حيث يكثرون المتعلمون واهل اليسار وتصدر الصحف والمطبوعات ويجتمع الموظفون والمزارعون والمضاربون واهل التجارة .

ومما بعد في باب الارتقاء في الفكر الديني بفضل ما انتشر بالطبع من امهات الكتب الدينية وثاققتها الايدي على اختلاف الطبقات ان اخذ بعض العامة دغ عنك الخاصة يدركون ان في بعض معتقداتهم شوائب وفي الكتب المعتمدة في القرن الماضي من مؤلفات المتأخرين اغلاطا لا بد من نزعيها والرجوع فيها الى الاصول الصحيحة . وهذا الاعتقاد سرى في النفوس لاسباب منها انسيال تيار الفلسفة الجديدة واخياء الامهات من اسفار السلف واتباه اهل العقول الى ان الرجوع بالناس الى الاصول خير من الضلال بها في مهامه الفروع المشوبة والمعتقدات الضارة .

وقد دخلت المطبوعات في دور جديد فبطل بعض الطبع السقيم واخذ ارباب المطابع يحاولون تجويد الطبع وانتقاء المصنفات النافعة فاحيوا كثيرا من الامهات القديمة في الشريعة والادب والتاريخ كما ترجموا بعض المترجمات الجليلة في الحقوق والطب والكيمياء والطبيعة والاجتماع والقصص . وكان الفضل في تحريك نفوس المسلمين هنا وايجاد حركة اديبة بينهم لاحد ارباب النفوس الكبيرة والحكمة ونعني به السيد جمال الدين الافغاني فانه هبط مصر في الربيع الاخير من القرن الثالث عشر ولقي فيها من بقايا اهل العلم والذين تعلموا في اوروبا من ساعدوه على قبول دعوته وكانت العجلة من طبعه يريد التأثير والاصلاح مباشرة ولولم يكن كذلك لدل الامة اكثر مما دخل على معانيها ووصف لها من اسقامها بنعمة لم تكن تألفها وقد تنعت دعوته في تهيسة الملكات فربى له رجالا يغلب عليهم النشاط والعقل في الجملة ومنهم اكبر مرابطه الشيخ محمد عبده الذي وفق الى تولي منصب الافناء فكان له فيه اعظم تأثير ومضى زهاء عشرين سنين على مصر كان فيها زعيم الحركة الاصلاحية كما كان شيخه جمال الدين من قبل ومن اعظم آثار الشيخ المفتي انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية وهي عمل نافع نشلج له الصدور ونقر العيون .

اما القطر السوري فكانت حركته العلمية والادبية جيدة على الجملة ولا سيما في بيروت ومدينة العلم والمدارس في الشام ومركز الحركة العقلية التي نشأت في الحقيقة بفضل مدارس مرسلها الاميركان والفرنسيس ومطبعتيهما العظمتين وسائر المطابع والجرائد التي نشأت فيها

اواخر القرن الماضي وبعده وثلة من الافاضل الذين خدموا العربية خدمة نافعة كفاندليك وورتيات وبوست والبستاني والاسبر والاحدب واليازجي والخوراني والشرتوني وشيخو وبلو واضرابهم السائرين على آثارهم .

ومما ساعد على تحسين الاذواق في بيروت ولبنان كثرة ولوع سكان الجبل بالهجرة الى اميركا منذ اوائل القرن كما اولع اجدادهم الفينيقيون بها من قبل وعودة بعضهم باموال اقاموا فيها القصور والمباني على النسق الغربي وحاولوا العيش على المناحي الافرنجية وجلبوا معهم عادات ومعارف جديدة نفعت في انشاء ملكاتهم وآدابهم . والفلاح السوري على الجملة ارقى من الفلاح المصري واذكى منه ولكن اهل الطبقة الوسطى والعليا من المصريين ارقى من اهل جنسهم في الشام . وقد سرت من حب الهجرة شظية الى داخلية سورية وهب المسلمون الى الاغتراب بعد ان كان المسيحيون وحدهم يضربون في اكناف الارض ولا سيما في اميركا ومصر كما سرت عدوى العلوم الحديثة وحب تعلم اللغات الاوروبية ولكن هذه الجرائم ما زالت قليلة الانتشار بينهم . ومن كان لم اليد الطولى في الدعوة الى تصحيح الافكار في سورية ولا سيما في دمشق واعمالها الشيخ طاهر الجزائري فانه تقع بتأكيته وارشاده وخطبه في الاندية الخاصة حتى كان سبباً في اثارة عقول جمهور كبير من المتعلمين والمتأديبين والمتصدين للنفع والتدريس فكان العضو العامل في انشاء المدارس الابتدائية في سورية واحياء كتب السلف بعد ان بددها الخلف وجعلها في خزائن عامة كال مكتبة الممومية في دمشق وغيرها . ولكن سورية منيت بالمراقبه على المطبوعات فحجزها اكثر المفكرين والكاتبين من ابناءها بحيث صبح ان تدعى سورية مدرسة وميدان العمل مصر واميركا وغيرها . ولئن لم يأت المسلمون في سورية حتى الآن بعمل يدل على فضل وعقل فان الاتباء الذي حدث في هذا العهد يدعو الى الامل بانه سيكون منه عما قريب احسن اثر يعود على البلاد بما ينفعها في مادياتها ومعنوياتها . ومتى ايقن المرء بجهله تعلم والجهل البسيط خير من الجهل المركب وزيد بالجهل البسيط هو ان لا يعلم صاحبه ويعلم انه لا يعلم والجهل المركب هو ان لا يعلم ولا يعلم انه لا يعلم .

هذا في العلوم الدينية اما العلوم الشرعية فقد قلّ المشتغلون بها كثيراً لان الناس منطوروون على حب المنفعة العاجلة اكثر من الآجلة . وذلك ان فريق المتعلمين رأوا العلوم الشرعية اصححت لا يرزق صاحبها منها بقدر رزق صاحب العلوم الدينية فرغبوا عن الاولى الى الثانية وفشا فيهم داء الاستخدام كمصر فذهبت بذلك العلوم الاسلامية التي كانت تعد دمشق وحلب مثلاً من امبات مدنها واسواقها في العصور السالفة .

واذا تقدمنا الى العراق نجد ما يشبه حال الشام وان بقي شيء من العلوم القديمة ولم يأخذ من الحديثة بقسط وافو على ان ذكاء العراقي ونشاطه معروفان موصوفان ولا يعد اذا تهيأت اسباب واحدة للقطرين الشائقين ان يسبق العراق الشام . ومثل ذلك يقال في نجد واليمن والحجاز فان الذكاء موجود في اهلها على اتمه ولكن اسباب التحصيل ضعيفة جداً والعاملون العاملون لا يبتدون الا طريقة نفخ امامهم سبيل الوصول .

واقليم نجد ما يرح على الفطرة حتى ان علوم العربية ضعيفة فيه وليس هناك غير العلوم الشرعية من الفقه الحنبلي وغيره مما بثه فيهم امامهم محمد بن عبد الوهاب في القرن الثالث عشر وكانوا من قبل في جاهلية جهلاء وهم لا يزالون بعيدين عن تعلم العلوم العصرية مع كثرة تجول بعضهم في الاقطار المجاورة في التجارة ورؤيتهم في الهند ومصر وغيرها من آثار العلم الغربي ما يبهج ويدهش . وكذلك الحال في اليمن الا ان العلوم الاسلامية على كثرة الفتن هناك ما فشت بين الزيدية ارقى مما هي في غيرها من الاقطار وهي منخطة عند غيرهم ويمتاز عامة اهل نجد واليمن عن عامة غيرهم بمعرفتهم المبادئ الاولى التي هي اساس لما بعدها بحيث ان عامتهم يشاركون اهل طبقات العلماء في المبادئ الصحيحة حتى ان كثيراً من عامتنا بل من علمائنا يتوهمون في كثير من عامتهم بانهم علماء فخواصنا ارقى من خواصهم وعامتهم ارقى من عامتنا . والحجاز ما يرح كما وصفه الكتاب العزيز وادياً غير ذي زرع كما انه لا يزال وادياً غير مخصب بالعالم والادب وان كان كما قال لي احد الثقات بانه قد ينزل فيه علماء كبار ولكن يقصدونه للعبادة والتخلي عن الدنيا لا ليعملوا ويجدوا قترى فيه الافغاني والهندي والمغربي وغيرهم ممن صرفوا اعمارهم في النافع واحبوا ان يهتموها بالعبادة . اما السواد الاعظم من الـكان هناك فبعيدون الآن عن التغيير ولعل السكة الحجازية متى وصلت بلادهم ييلاد الشام لنقل اليهم من وراء البحار ما تستنير به عقولهم كما ستفعل اليهم الغلات والثمار .

هذه احوال جزيرة العرب من الارتقاء وهو احرى كما رأيت ان يدعى وقولنا .
واما شمالي افريقية فحالتها ليست الا دون ما يرجى فاذا نظرت الى المغرب الاقصى ترى الفوضى السياسية تترق احشائها منذ سنين بل منذ اعصار والقول الفصل فيها لما شاع الطرق منذ خمسة قرون وليس لعلماء الدين الحقيقيين سلطة تنفع اما العلوم العصرية فعدومة بالجملة واذا نظرت الى فاس وغيرها من امهات مدن العلم في ذلك الصقع الواسع لا تجد لها قد اختلفت شيئاً عما كانت عليه منذ قرون اللهم الا في الخطاط العليم الدينية مع ان المغرب الاقصى من اوروبا على قيد غلوة ولكنه ضرب دونه ودون اندنية بأسوار منيعة وحرم اهل الشأن فيه

ما لم يحرمه دين ولا عقل كقراءة الكتب الجديدة والصحف بل وصل الغلو بهم الى تحريم تفسير القرآن خيالات يتخلونها من فرائده .

واذا جئت المغرب الارسط وهو الجزائر ترى العلوم الاسلامية منمطة فيه والعلوم الجديدة ليس منها شيء الا في المدارس الفرنسية على قلة جدواها ولم يصل منها الى اهل البلاد النافعين في انهاضها غير نور ضئيل جدا لان اكثر الدول المستعمرة تذهب الى ان العلم يرفع ربقتها عن المستعمرين وكذلك الحال في المغرب الادنى وهو تونس وبرقة اي طرابلس وما والاها من بلاد الصحراء الا ان اهل تونس هم بالنسبة للغربيين المجاورين لها ارقى في العلوم الدينية والدنيوية . وجامع الزيتونة بكاد يكون ارقى من الجامع الازهر على ان تونس كانت منذ القديم تعنى بالعلوم الاسلامية اكثر من غيرها من الاقطار وحسن الترتيب بين التوانسة في طريقة التعليم قديم العهد كيف لا وهم في الاكثر من نسل الفينيقيين وجالية الاندلسيين . ويرجى لم بعد ان نقس عنهم الخناق بعض الشيء ان نتفهم الحرية فيفكر قادتهم لم وان ما نسمع به وزراء من الصحف والجمعيات التي اكثروا من تأسيسها . وآخرنا ليدعونا الى الرجاء بان يكون الربع الثاني من القرن احسن فائدة واكبر عائدة عليهم ان لم يعاودهم الضغط والمراقبة .

هذه حال البلاد التي يتكلم فيها باللغة العربية بتي السودان وزنجبار وحالها حال سائر البلاد العربية واضعف وكنا نأمل لاهل زنجبار ان يكونوا كاهل اليمن في العلم والاتباء ولا ندري ما احاق بهم حتى تأخروا عن اللحاق بهم . واذا احصيت العرب لا تراهم يقلون عن خمسين مليوناً ولو قست حالم العلية والمادية باصغر الشعوب الاوروبية كالبلجيكا او هولاندة او سويسرا لكنت وانتجت هذا ولغة العرب ينطق بها نحو مئتين وخمسين مليوناً فهي اقوى اللغات واضعفها اقواها باساسها الثابت المتين واضعفها باهلها المشتتين . فتسأل الله ان يهيئ لهذه الامة من يرشدها ولا خير لها الا من اتقها لان سادتها وكبراءها ناموا عن رعايتها .

